مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 07 العدد: 02 جوان (2023) ص 708-717

حجاجية الاستعارة ودورها الإقناعي في الخطاب النبوي الشريف

The Argumentativeness of Metaphor and Its Persuasive Role in the Honorable Prophetic Speech

حميدات الجمعي*

جامعة محمد لمين دباغين- سطيف2 (الجزائر)

hamidatdjemai1972@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022/12/29
تاريخ القبول:
2023/04/16

الكلمات المفتاحية:
- ✓ حجاج،
- ✓ حجاجية،
- ✓ الاستعارة،
- ✓ الإقناع،
- ✓ الخطاب النبوي

الملخص:

في ظلّ تجدّد الاهتمام بالدرس البلاغي في العصر الحديث والذي أدّى إلى ظهور بلاغة جديدة قائمة على تحديد العلاقة اللازمة بين البلاغة ودراسة وسائل الإقناع المختلفة التي توظّفها جعل الحجاج -من هذا الاهتمام - من أهمّ النظريات التي تشّكل اهتمام التداولية باعتباره سمةً في الخطاب وطابعا فيه ،خاصة وهو الذي يتضمن كلّ وسائل الإثارة و الإقناع و التحاور لاسيما في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، لذلك حَظي الحقل البلاغي باهتمام الدارسين قديما وحديثا بالصورة البلاغية عامة والاستعارية" بصفة خاصة في الخطاب النبوي باعتبارها وسيلةً حجاجية استعملها الرسول عليه الصلاة والسلام لترسيخ معتقد أو استبدال مفهوم ،أو تعديل سلوك أو دحض رأي أو شبهة خاصة حين تعتمد الحجة من منظور تفاعلي موصول بسياقات التداول ومقامات التواصل.

Article info

Received
19/12/2022
Accepted
16/04/2023

Keywords:
- ✓ *Argumentation*
- ✓ *Argumentative*
- ✓ *Metaphor*
- ✓ *Persuasion*
- ✓ *Prophetic Speech*

Abstract : (not more than 10 Lines)

In light of the renewed interest in the rhetorical lesson in the modern era, which led to the emergence of a new rhetoric based on defining the necessary relationship between rhetoric and studying the various means of persuasion that it employs, making argument - out of this interest - one of the most important theories that constitutes the interest of pragmatics as it is a feature in the speech and a character in it, especially as it includes all means of excitement, persuasion and dialogue, especially in the Holy Quran and the purified Sunnah. Therefore, the rhetorical field has got the attention of scholars, past and present, in the "rhetorical" image in general and the "metaphorical" image in particular in the prophetic speech as a means of argumentation that the Messenger, peace and blessings be upon him, used to consolidate a belief, replace a concept, modify a behavior or refute an opinion or suspicion, especially when the argument is based on an interactive perspective linked to the contexts of pragmatics .

* المؤلف المرسل

. مقدمة:

يجب أن تحتوي مقدمة المقال على تمهيد مناسب للموضوع، ثم طرح لإشكالية البحث ووضع الفرضيات المناسبة، بالإضافة إلى تحديد أهداف البحث ومنهجيته.

ـ مفهوم الحجاج بين اللغة والاصطلاح:

ـ الحجاج لغة:إذا كان الاهتمام بالحجاج قديما قِدم التراث اليوناني، فهو اليوم موضوع دراسات كثيرة في حقل الفلسفة واللغة على حدٍّ سواء، إذ لا يخفى أن النظر والبحث في أصنافه لا يتأتّى إلا بالرجوع إلى أصوله اللغوية والفلسفية في التراث الإنساني ..

إنّ جرد الدلالة اللغوية للحجاج في المعاجم العربية والأجنبية يجد أن مفهوم لفظه يدور حول معاني الجذر اللغوي لكلمة "حجاج"(ح، ج، ج) بمعنى المجادلة بسبب خلاف أو لوجهة أو لرأي أو ما شابه ذلك، ومنه الدليل على الرأي المرغوب إثباته، وهذا ما نجده في بعض المعاجم العربية، فمنها من أورد معنى الحجاج "غلبه بالحجة أو حاجّه محاجة وحجاجا" أي جادله واحتجّ عليه:أقام عليه الحجة وعارضه مستنكرا عليه فعله، وتحاجوا:تجادلوا، والحجة الدليل والبرهان .... (ابراهيم مصطفى، احمد حسن الزيات، واخرون، دت، ص**106-107**)، ويظهر من هذا أنّ الحجاج يكون لخصومة، وهذا ما دلّت عليه كلمة "غلبة"، وتكون الغلبة في الكلام والخطاب للذي يقيم الحجة والبرهان على صحة مايدّعي، وما دام هناك خصومة فالجدال هو المظهر الذي يجسد صورة الخطاب الحجاجي" (حشاني، **2013**، ص**268**).

وجاء في "لسان العرب" في مادة "حجج"..الحج بمعنى القصد ..وحججه يحُجه حجا: بمعنى قصده والحجة البرهان، وقيل الحجة ما دفع به الخصم، ورجل محجاج :أي جدل والتحاجّ التّخاصم، واحتج بالشيء اتخذه حجة ..." (ابن منظور، د ت).

وقد ورد لفظ الحجاج "الحجة" في القرآن الكريم مكررة في مادة "حجج" لتفيد معاني متباينة بين المخاصمة بالباطل والمخاصمة بالحق، مصداقا لقوله تعالى" قل فللّه الحُجة البالغة فلو نشاء لهديناكم أجمعين" الأنعام **149**، وفي قوله تعالى :"يا أهل الكتاب لمَ تحاجون في إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، هاأنتم حاججتم فيما لكم به علم فلمَ تُحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون"آل عمران **65 66**، وفي قوله تعالى :"والذين يُحاجون في الله من بعد ما استجيب لهم حُجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد " الشورى **16** .

فارتبط معنى الحجاج بالمجادلة أو المحاجة الربانية التي من شروطها الصدق والعدل ..وأما من يجادل بباطل أو بأمور ما أنزل الله بها من سلطان فمصيرها الدحض والعقاب ..إضافة إلى ارتباط الحجاج واقترانه بمفهوم "البرهان "سواء كان ذلك في القرآن الكريم "ومن يدعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنّما حسابه عند ربه إنّه لا يفلح الكافرون"المؤمنون**17**، أوفي الحديث النبوي كحديث الحارث بن الأشقري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ":"الطهور شطر الايمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن مابين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان والصبر ضياء، والقرآن حُجة لك أو عليك..." (النووي، **1392**، ص**101**)، فالصدقة برهان معناه أنه يفزع إليها كما يفزع للبراهين وكأنّ العبد إذا سُئل عن مصرف ماله كانت له صدقاته براهين في جواب هذا السؤال..فيقول:تصدقت به، وقيل إنّ الصدقة حُجة على إيمان فاعلها، لأنّ المنافق يُمنع منها كونه لا يعتقدها، فمن تصدّق استدلّ بصَدقته على قوّة إيمانه.." (المرجع نفسه، الصفحة نفسها).

ـ الحجاج اصطلاحا:

إن مقاربة أولية لمفهوم الحجاج تُظهر "أنّه مفهوم عائم، يصعب حصره والإحاطة به، وذلك لما يتميز به من كثرة الحقول العربية التي تناولته، إذ نجده متواترا في الأدبيات الفلسفية والمنطقية والبلاغية التقليدية..وفي الدراسات القانونية والمقاربات اللسانية والنفسانية والخطابية المعاصرة..." (طروس، 2005، ص6).

لذلك يبقى الحجاج "المحاججة"شكلا لغويا ومضمونا معرفيا تلتقي فيه أبعاد كثيرة ومضامين متعددة بغية الوصول إلى قضية محلّ اختلاف، ويبدو الصواب مطلب الطرفين، لذلك عرَّفه "طه عبد الرحمن":"هو كل منطوق به مُوجّه إلى الغير "المخاطب"لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها.." (طه،1998،ص226)، بل يذهب إلى أبعد من ذلك بقوله :"لا خطاب بغير حجاج ولا مخاطِب من غير أن يكون له وظيفة المدّعي، ولا مخاطَب من غير أن تكون له وظيفة المعترض..." (المرجع نفسه، الصفحة نفسها)، فقد جعل"العلاقةالحجاجية أصلا في كل خطاب، وأنّ عملية الفهم والاستجابة لاتتحقق إلا إذا كان هناك اعتراض.

وكثيرا ما ارتبط الحجاج ب"الإقناع" وهو ما ذهب إليه "ابن ظافر الشهري "في "استراتيجيات خطابه" إذ عرّف الحجاج بعد ربطه بالإقناع بقوله:"الحجاج هو الآلية الأبرز التي يستعمل المرسِل اللغة فيها وتتجسد عبرها استراتيجية الإقناع.." (بن ظافر الشهري، 2004،ص456)، بمعنى ليس هناك مُرسِل يرسل خطابا هباءً إلاّ ومن ورائه هدف مُعين وهو الاستمالة والتأثير عن طريق الحجج اللغوية، وحتى غير اللغوية كالإشارات والايماءات.....

أمّا المفهوم العام للحجاج "**argumentation** "في الموسوعة العالمية فهو:"الطريقة التيّ تُقدم وتُعرض بها الحجج، المصطلح يحيل أيضا على مجموع الحجج التي تنشأ عن هذا التقديم..." (**Cfencyclopedique universalise, 1995, P.937**)، أي هو طريقة تنظيم واستعراض الحجج للمخاطب، ليتكوّن لنا في النهاية نسقٌ منظمٌ من الحجج الموجهة .

ليقترب هذا المفهوم إلى حدٍّ بعيدٍ مع ما ذهب إليه "لالاند" في قاموسه الفلسفي حين عرّف الحجاج على أنّه:"سلسلة من الحجج تنتهي بشكل كليٍّ إلى تأكيد نفس النتيجة....كما يرى بأنّ الحجاج طريقة في تنظيم واستعراض الحجج وبنائها وتوجيهها نحو قصد مُعيّن ليكون عادة الإقناع والتأثير، فتكون الحجة في سياق هذا العرض بمثابة الصحة أو الدحض....

ولعلّ الربط بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للحجاج يظهر للعيان مع نهاية عقد الخمسينيات من القرن العشرين (1958) حين تأسست "البلاغة الجديدة " مع رجل القانون"بيرلمان" واللسانية البلجيكية "تيتيكا"حين أصدرا معا كتابهما "الوجيز في الحجاج والبلاغة الجديدة"، فـ"بيرلمان" عرّف الحجاج بالتركيز على وظيفته، والتي تتمثل في "حمل المتلقي بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الإقتناع " (الدريدي، دت، ص21)..، لتظهر الفائدة من الحجاج أن تُقنع شخصا بقضية أو تزيد من شدة اقتناعه عن طريق الحجاج، لحمله إلى عمل أو تهيئته لذلك، لنخلص في الأخير إلى أنّ : "العملية الحجاجية هي فاعلية خطابية تختلف فيها طرق وأساليب ودرجات الإقناع، وذلك باختلاف "الحجة "والتي تتوسل أدواتٍ لغويةً خاصة في إقناع السامع، والحجج طريقة يمكن من خلالها لشخص أو مجموعة من الأشخاص أن يجعل المتلقي يتخذ موقفا وهذا لا يتأتى إلا عن طريق حسن اختيار هذه الحجج التي تحمل في صميمها هدفا إقناعيا وذلك عن طريق حسن البناء والاستنتاج..." (الرقبي، 2018، ص17).

ـ الاستعارة الحجاجية :

كثيرا ما تُعوّل النظرية الحجاجية على البلاغة، وترى فيها طاقات عظيمة جدا إلى حدّ اعتبارها، حجاجا في حد ذاتها، بحيث يكون وراء كل حجاج بلاغة، والعكس صحيح، لان مدار ذلك هو الإغراء والاستهواء قصد الإمتاع والإقناع .." (اعراب، دت، ص45)، لذلك حازت الالوان البلاغية بصفة عامة على أهمية بالغة في شتى الخطابات، وذلك لما تحققه من استمالات أسلوبية في الخطابات الحجاجية على اختلاف أنواعها.

ـ تُعد " الاستعارة" مركز الحجاج، وأهم آلياته البلاغية نظرا لما تحققه من نتائج إيجابية في تقريب المعنى إلى ذهن القارئ، وهذا ما عبّر عنه "طه عبد الرحمان": "العلاقة الاستعارية هي أدلّ ضروب المجاز على ماهية الحجاج.." (طه عبد الرحمان، ص233)، وهذا للطاقة الحجاجية التي توفرها للمتكلم ليقنع المتلقي، بتركيب استعاري حجاجي ومنه نشير إلى: "جمالية الإرسال من أجل التأثير في المتلقي، وأسر انتباهه، فيتلذذ باستقبال الرسالة الكلامية المبثوثة إليه في أحسن صورة..." (مرتاض، 2009، ص 226-227).

لقد أولت الدراسات اللسانية المعاصرة "الاستعارة" مكانة خاصة في تحليل الخطاب، وخاصة في الخطاب الحجاجي، باعتبارها آلية تساهم كباقي الآليات في بناء القول الحجاجي من مختلف النواحي الحجاجية، وذلك بغية التأثير والإقناع، فانطلق علماء العربية في فهم المعاني والدلالات اللغوية من حقل تداولي يقوم على "الاستعمال" فنظروا إلى الظاهرة اللغوية من خلال حقيقتين:

- حقيقة وضعية: هي اللفظ المستعمل أولا فيما وضع له.

- حقيقة عرفية: هي اللفظ المستعمل فيما وضع له في عرف "الاستعمال، فأطلقوا عليه مصطلح" المجاز" وهو يعني كلّ انتقال من معنى إلى آخر لما بين المعنيين من تعلق، وتكون المزية أثبات وجه الشبه، وهذا ما عرف عند البلاغيين أيضا "بالمجاز": يقول "عبد القاهر الجرجاني" الكلام على ضربين؛ ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن بذلك اللفظ الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم نجد لذلك المعنى دلالة تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر: الكناية، الاستعارة، والتمثيل". (الجرجاني، **2004**، ص173).

فالاستعارة إذن: - باعتبارها مجازا – تقوم على الجمع بين شيئين أو فكرتين انطلاقا من العلاقة الشبيهة، من أجل تقديم صورة جديدة أو مخترعة تتدخل فيها عملية التخييل والإبداع، ذلك أنّ الاستعارة عند علماء العرب ليست فقط زخرفا أو نقشا لتزيين الكلام، ولكنها فنٌّ لغويٌّ تداوليٌّ يعطي للقول قوّته الدلالية، وإصابته النفسيةتأثيرا وانفعالا واستحسانا، وهي كما عرّفها "الأزهر الزناد": "مجاز لغويٌّ علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، أو هي تشبيه سُكت عن أحد طرفيه، وذُكر فيها الطرف الآخر، فالمتكلم يستعير لفظ المشبه به ليستعمله للدلالة على المشبه، ثم يُرجعه إلى مجاله الأصلي..." (الزناد، **1992**، ص59).

فنقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما في "الاستعارة" يلعب دورا مهما في توضيح الفكرة وتقريبها إلى المتلقي، ذلك أنّ الصفة التي تجمع بين اللفظين هي التي تبين له ما أراد المتكلم أن يوصله إليه، فالاستعارة إذن تُسهم في فكّ الغموض، وإظهار المعنى الخفي للقارئ، كما قال "الزركشي" في تعريفه" :"وحقيقتها أن تُستعار الكلمة من شيء معروف بها إلى شيء لم يُعرف بها، وحكمة ذلك إظهار الخفي، واتّضاح الظاهر الذي ليس بجليّ، أو بحصول المبالغة..." (الزركشي،**972** ، ص433)، لتحظى بتعريف آخر عند "عبد القاهر الجرجاني" في "أسراره": "اعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدلّ الشواهد على أنّه اختص به حين وضع، ثم استعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم ..." (الجرجاني، د ت، ص27).

وإذا كان هذا هو شأن الاستعارة عند العرب فإنها عند الغرب:" تركيبٌ لسانيٌّ سليم، تمثل خصوصية منطقية ليست دائما كاذبة، تتميز عن عمليات المشابهة أو المماثلة لكونها تلتزم بوجود خصوصية مشتركة للقضايا المطروحة، كما تتميز بكونها متغيرا تختلف من شخص إلى آخر، ولا يمكن الإتيان بمعادل لمعناها، لأنّها أصلا تستعمل في الحالات التي يستطيع قول آخر أن يؤدي نفس المعنى، ونفس التأثير..." (***Dictionnaire encyclopédique de pragmatique . ED :P60***).

أما الدراسات العربية الحديثة فقد ربطت في حديثها عن الاستعارة بين الاستعارة والحجاج أو ما يسمونه "بحجاجية الاستعارة" كما نجده عند "العزاوي" الذي ربط بين الاستعارة والسلم الحجاجي، ويعتبر "أن الأقوال الاستعارية أعلى وأقوى حجاجيا من الأقوال العادية.." (العزاوي، **2006**، ص102)، كما بين "طه عبد الرحمان" أن :"وظيفتها داخل الحجاج تكمن في إضافة شيء جديد، هو تكثيف القول انطلاقا من بعض الصور المجازية، لكي يشكل قوة في المعنى والبيان، حتى يتسنى للمتكلم من خلال هذه القوة تمرير موافقته وأطروحته .... (طه، د ت، ص304).

لذلك نجد الاستعارة الحجاجية عند العزاوي تدخل ضمن الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم بقصد توجيه خطابه وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية... وهي النوع الأكثر انتشارا لارتباطها بمقاصد المتكلمين وسياستهم التخاطبية والتواصلية ... في مقابل الاستعارة الحجاجية نجد "الاستعارة البديعية" وهي التي تقصد لذاتها، ولا ترتبط بالمتكلمين ومقاصدهم وأهدافهم، وإنما نجد هذا النوع من الاستعارة عند الأدباء الذين يهدفون من ورائها إلى إظهار تمكّنهم من اللغة، فالسياق هنا هو سياق الزخرف اللفظي والتفنن الأسلوبي وليس سياق التواصل والخطاب ... (العزاوي، د ت، ص108).

وهو الدور الذي أثنى عليه "ابن ظافر الشهري " مُبينا أنّ الاستعارة تُعدّ وسيلةً هامة من وسائل التأثير والحجاج، لما لها من قدرة في التصوير، وقيامها على التناسب مع مقتضيات السياق، فهي تُعدّ من أبلغ الصور وأقوى الآليات البلاغية تعبيرا عن الواقع، وهذا ما جعلها أداة بلاغية حجاجية قوية .... ووسيلة لغوية يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية، بل إنّها من الوسائل التي يعتمدها بشكل كبير جدا، مادمنا نستم بفرضية الطابع المجازي للغة الطبيعية....." (بن ظافر الشهري، **2004**، ص496-497).

إنّ أهمية الاستعارة في الحجاج كأهمية ووظيفة واحدة من أنواع البيان الثلاثة، فالهدف الأساس هو "المرسَل إليه" وليس تزيين الخطاب، فهو يبحث عن كلّ السبل الكفيلة له لتحقيق قوة التأثير في هذا العنصر المهمّ في العملية التواصلية، وقوّة التأثير نقصد بها أن يترك الأسلوبُ أثره في نفوس القارئين والسامعين، وأن يدفع من يقرأه أو يستمعه إلى الإيمان بما آمن به البليغ فكرة أو رأي أو عقيدة ...." (خفاجي، دت، ص139)، وهي الطريقة التي تحقق ذلك التكافل بين المرسل والمتلقي، وبالتالي تنجح العملية التواصلية بين الطرفين.

هذا الطرح وجد ما يدعمه في الدراسة البلاغية القرآنية، ذلك أنّ دراسة الأساليب القرآنية في التأثير والاستمالة كثيرا ما يؤدي إلى فهم "الصورة القرآنية "على أنّها طريقة في الإقناع تتوسل بنوع من الإبانة والتوضيح، وتعتمد على نوع من الجدل والحجاج، وتحرص على إثارة واستمالة المتلقي..." (عصفور، 1992، ص332). فهي "بذلك استعارة احتجاجية لأنها من الأدوات المفضلة إليه في التعبير عن معانيه.." (بن صالح، 2007، ص67)، ودعوة مخاطبيه إلى الإقناع والتصديق لما جاء فيه، فالخطاب القرآني يعمد إلى هذه الصورة التي رسمها فيعطيها أنواعها وظلالها، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يُضيف إليها الحركة، فالحوار، فإذا هي شاخصة تسعى..." (قطب سيد، د، ت، ص19).

وليس بعيدا عن "البلاغة النبوية" إذ نجد ذلك التأثير الذي تحدثه الاستعارة بجمالها، حين تؤثر في المتلقي بسحرها، ومراعاة لمقتضى الحال للمخاطب من جهة، وتفشي الغرض منها ومن استخدامها حين تحقق المطمح الاقناعي "للاستعارة الحجاجية" في "الحديث النبوي الشريف" من جهة أخرى.

ومن أمثلة الاستعارة في الحديث النبوي الشريف ما رُوي عن أنس بن مالك ﷺ قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبرٍ، فقال: "اتقي الله واصبري، قالت: إليك عني، فإنّك لم تصب بمُصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنّه النّبي ﷺ، فأتت باب النبي فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنّما الصبر عند الصدمة الأولى..." (البخاري، **1992**، ص431).

فالشاهد في قوله ﷺ:"إنما الصبر عند الصدمة الأولى" استعارة لطيفة أراد بها الرسول ﷺ أن يقنع المرأة بوجوب الصبر عند المصائب، فإذا وقع الثبات أول شيء يهجم على القلب مقتضيات الجزع، فذلك هو الصبر الكامل الذي يترتب عليه

الأجر....والمراد بالصدمة الأولى: "قوة المصيبة وفجأتها، " وحقيقة الصدم: ضرب الشيء الصلب بمثله واستعير في الحديث لفجأة المصيبة، حيث تكون أشد شيء على النفس فاستعير للمصيبة الواردة على القلب .....بمعنى أنّ الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة، بخلاف ما كان بعد ذلك فإنّه على الأيام يسلو..." (العسقلاني، **1998**،ص172)، وقال الإمام النووي: "أصل الصدم الضرب في شيء صلب، ثم استعمل مجازا في كلّ مكروه حصل نفيه..." (النووي، دت، ص227).

وقد أعرب (شبه) الرسول "ﷺ" عن المصيبة بلفظة "الصدمة" لغرض بلاغي، وهو الإشارة إلى قوتها وشدتها. وأنها جاءت على غرّة، ودون موعد، وهذا مقام قد لا يملك الإنسان فيه نفسه، ولا يستطيع أن يُلجم فيه مشاعره لذلك كان "الصبر" في أعلى درجات الصبر بل هو الجدير بلفظ الصبر دون غيره من المقامات التي تتنزل فيها المصائب، وزاد في هذا المعنى وصف الكلمة بكلمة "الأولى" أي وقت وقوعها، وهي في إبراز الشدة بل هي وصف لساعة المصيبة، والتي إذا امتلك الإنسان فيها نفسه وصبر كان بحق صابرا.

والاستعارة "تصريحية" ذكر فيها لفظ "المشبه به" (الصدمة) ليتلاءم من حيث المخاطبة مع الصبر والثبات عند ورود المصيبة، ولعل النبي "ﷺ" قد آثر الاستعارة لقوة تعبيرها في حال المرأة المخاطبة التي اشتدت عليها المصيبة، حتى أنّها لم تعرف النبي "ﷺ"، ولم تُبال بموعظة الفعل الكلامي المتمثل في الأمر "اتقي" "اصبري"، و"اسم الفعل" "إليك عني"، وتذكيره إياها بتقوى الله والصبر، ويمكن تمثيل المسار الحجاجي لهذه الاستعارة باعتبارها الأقوى قولا وحجة في السلم الحجاجي كما يلي:

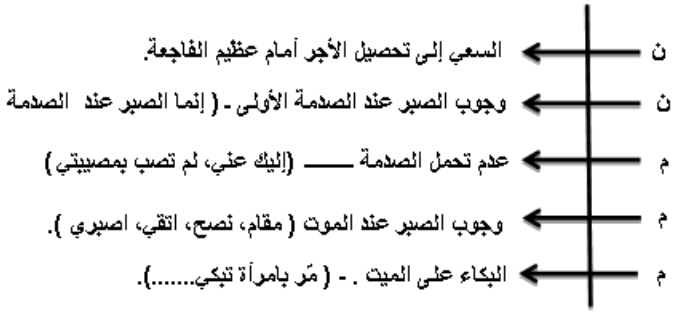

إذ يعكس السّلم الحجاجي مراحل الحجاج في الاستعارة؛ بدءا من وصف الحالة عند البكاء وصولا إلى ما أراده الرسول "صلى الله عليه وسلم"، ألا تجتمع عليها مصيبة الهلاك وفقد الأجر، لأنّ المرء لا يؤجر على المصيبة لأنها ليست من صنعه، وإنمّا يؤجر على حسن نيته وجميل صبره، وقد تمكن "عليه الصلاة والسلام" من إقناعها بأسلوب "النصح والإقناع " بعد أن مهّدت (لم أعرفك) اعتذارا عن قولها الصادر من الحزن ....فبيّن لنا الرسول "ﷺ" أنّ حق هذا الصبر أن يكون في أول الحال الذي يترتب عليه الثواب.." (العسقلاني، ص172)، وهي النتيجة التي يقرها السلم الحجاجي لما سبقها من "مقدمات" كما تُسمى في العرف التداولي.

ـ عن عبد الله بن عمر ﷺ قال:بعث النّبي ﷺ بعثا، وأمّر عليهم أسامة بن زيد فطعن بعضُ الناس في إمارته، فقال النبي "ﷺ":إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيّم الله إنه كان خليقا للإمارة، وأنه كان لمن أحب الناس إلي، و ان هذا لمن أحب الناس إلي بعده..." (البخاري، دت، ص1365).

فقد أورد "البخاري" هذا الحديث في باب ذكر فضائل الصحابة خاصة في باب الإمارة والحرب، وفيه إشارة لإمارة زيد بن حارثة في "غزوة مؤتة" رغم صغره، كما جاء في رواية عائشة قالت: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في جيش قطّ إلا أمرّه عليهم ". وفيه إشارة إلى إمارة المولى وتولية الصغار على الكبار، المفضول على الفاضل، لأنّه كان في الجيش الذي كان عليه أسامة أبو بكر وعمر ... وهذا إشارة إلى "زيد".

هذا الصنيع من قبل رسول الله لم يكن ليرضيَ بعض الصحابة المجاهدين تحت لواء أسامة كونه "مولى"، مما حتّم على رسول الله العمل على إقناعهم، لاسيما حين استعار "الطعن" للإمارة، و الطعن عادة الوخز أو الضرب أو القتل بالرمح والحربة

ونحوهما..... (ابن منظور، دت)، وجوزه "الزمخشري" في "أساس البلاغة" على أنّه من المجاز :طعنه بالرمح ... من المجاز : طعن فيه وعليه، وطعن عليه في أمره، وهو طعان في أعراض الناس ...، وهي صورة من صور إطلاق الطعن على "الإمارة" فيه تشبيهٌ حذف أحد أركانه، إذ شبه "الإمارة "ما يُطعن حقيقة ك الإنسان"، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو "الطعن" ولعلّ في ذكر هذا اللازم المتروك تخييلا يُصوّر بدقة عظم المنكر، وشناعة الجرم الذي وقع فيه المخاطب وكأنّ الإمارة التي عقدها رسول الله "ﷺ" لأسامة ﷺ صارت عدوًّا في ميدان القتال، يستهدفه بعض الصحابة فيسددون إليه رماحهم ليطعنوه رغبة في قتله.

وقد جاء التعبير بالفعل المضارع "تطعنوا" لتصوير دلالة المضارع على التجديد مرة بعد مرة، مما يُحتّم وجوب إقناع المخاطب (الصحابة) بأحقية الولاية لأسامة، ويعكس إنكار النبي "ﷺ" لصنيع أصحابه، فأشار إلى:

- إمارة الوالد من قبل (زيد بن حارثة)، والكل يعلم مكانة زيد عند رسول الله "ﷺ".
- تأكيده "ﷺ" بأحقية أسامة للخلافة عن طريق القسم:" وأيم الله....".
- بيان منزلة الابن بمنزلة الوالد قبله.

وكلها حجج استعملها رسول الله "ﷺ" من وراء هذه الاستعارة لإثبات أحقية أسامةبن زيد بالخلافة على رأس هذا الجيش، لأنّ محبة الوالد تقتضي محبّة الابن، ومحبتهما معا تُوجب تولّي الخلافة بناء على تسلسل الحجج في الحديث النبوي الشريف، كما يعكس ذلك السلم الحجاجي التالي:

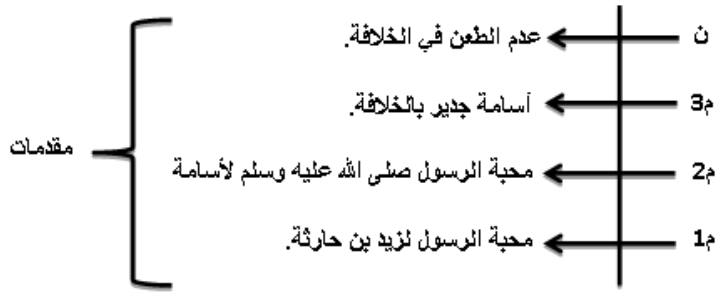

فما جاء في آخر الحديث يُعدّ بمثابة "مقدمات" كلّها تخدم نتيجة واحدة وهي أحقية أسامة بالإمارة وعدم الطعن فيها، فحبُّ الرسول"ﷺ" لأسامة من حبّه لزيد بن حارثة، مما يخول جدارته بالإمارة (آيم الله إنّه كان لخليقا بالإمارة)، إضافة إلى ما استعمله للتوكيد مع القسم: إنّ اللام المزحلقة (إن هذا لمن أحب ...). (وإنّه كان لمن أحبّ الناس إليّ...) من الضرب الإنكاري في ضروب الخبر المؤكد بأكثر من أداتين.

ـ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي "ﷺ" قال: "سبعةٌ يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنّي أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه..." (البخاري، دت، ص235).

في الحديث النبوي الشريف تقسيم لطيف بعد إجمال، وبيان توضيحي مجيد لأولئك السعداء الأبرار الذين نالوا الكرامة الإلهية والسعادة الأبدية في دار الخلد والنعيم، بسبب ما قدموا في الحياة الدنيا من صالح الأعمال واتصفوا به من جميل الخصال.." (الصابوني، **1986**، ص20)، لذلك شملتهم العناية الإلهية والرحمة الربانية تحت ظل عرش الله الكريم، لكلّ من اتصف بواحدة من تلك الخصال الحميدة، ومن بينها ما صورّه رسول الله في أجمل صورة لذلك الرجل المحسن الذي تصدّق بصدقة خفية عن أعين الناس ابتغاء مرضاة الله فأخفى صدقته، في شكل "استعارة مكنية"، فقد شبّه اليد اليمنى إنسانا واليد اليسرى بإنسان آخر حذف المشبه به (الشخص الأول) ورمز إليه بشيء من لوازمه وهي" اليد" على سبيل الاستعارة المكنية. وتكمن حجاجية هذه الاستعارة في عدها "مقدمة" من مثل "مقدمات أخرى" توصل إلى نتيجة نهائية وهي ظل الله يوم لا ظل إلاّ

ظله، خاصة أنّ الرسول الله "ﷺ" جسدها في صورة خيالية في شكل "استعارة مكنية" نظرا لاختفاء المشبه به، وحلول شيء من لوازمه، حيث يجد المتلقي في هذا اللون من التصوير دافعا إيجابيا يُعمل الذهن، ويمدّ النظر لتأليف الهيئة الحاملة للصورة الفنية، ذلك أنّ المتلقي في "الاستعارة التصريحية" يتلقى الفكرة جاهزة مكتملة العناصر، أمّا في الاستعارة المكنية فإنّه يحتاج إلى أن يُعمل ذهنه ليكمل العناصر الناقصة من الصورة، وكأنه يشترك مع المرسل (المتكلم) في إكمال أجزاء الصورة....

ويمكن تجسيد هذه الاستعارة كواحدة من مجموع "مقدمات" موصلة إلى "نتيجة" تحمل معنى "التشويق" وحُبّ الفوز بما أعدّه الله تعالى للمُتّصفين بهذه المقدمات"، خاصة وأنّ النتيجة:ظل عرش الرحمن يوم لا ظلّ إلا ظلّه، من خلال السلّم الحجاجيّ التالي:

ـ عن معاذ ﷺ قال:" قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال:لقد سألت عن عظيم، وإنّه ليسير على من يسرّه الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة، و تؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحجّ البيت، ثم قال :ألا أدُلّك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنّة، والصدقة تُطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النار، وصلاة الرجل في جوف الليل ... ثم تلا قوله تعالى:"تَتَجَافَى جُنُوبُهُم.. يعملون"، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده وذروة سنامه؟ قلت بلى، يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد..." (النووي، دت، ص447).

فالحديث يعكس صورة من صور حوار الصحابة رضي الله عنهم مع الرسول "ﷺ" في أمور دينهم ودنياهم، تتجلى فيه رغبة الصحابي في معرفة أمور الدين، وحرص الرسول "ﷺ" على تعليمها وتوصيلها، إذ عمد عليه الصلاة والسلام على الإقناع والتأثير، حيث انطلق من المهم "صحة العقيدة"، ثم ثنّى بالنوافل "قيام الليل، الصدقة، الصوم التطوعي "، ثم تدرّج به إلى بيان ما يقوم عليه هذا الدين في ضرب من الاستعارة، حين شبّه الدين بالإنسان، حذف "المشبه به وأبقى لازمة تدل عليه "رأس"، ثم "بالخيمة" التي لها عماد تقوم عليه، في قوله : و"عموده الصلاة" فاستعار "عموده" من الخيمة ووظّفها للصلاة على سبيل الاستعارة، ليشبه الإسلام بالراحلة "الجمل" حذف المشبه به وترك صفة من صفاتها "ذروة السنام" وذروة السنام بمعنى أعلاه، لأنّه بارز وظاهر كبروز الإسلام، وتميزه عن الأديان الأخرى .

ففي هذا الحديث تتجلى حجاجية الاستعارة من خلال تدرّج الرسول "ﷺ" تدرجا منطقيا من خلال حواره مع معاذ بن جبل ﷺ، ذلك ما تعكسه أدوات الحجاج من خلال:

- اغتنام فرصة تواجده ﷺ مع الرسول ﷺ.
- إجاباته ﷺ عن أسئلة معاذ تهيئة للجو وتشويق للمعرفة واستدراج للإقناع والتأثير ومن ثمةَ استجابة وتنفيذ.

- سؤال الرسول ﷺ معاذا" ألا أخبرك "، "ألا أدُلك "تعكس استعداده الفطري من جهة، ورغبته في الاستزادة ليتضح أمر مساءلته من جهة أخرى.

- تدرج الرسول "ﷺ "في الإجابة عن الأسئلة من العام إلى الخاص، أو "المهم إلى الأهم."

-اقتناع معاذ عن طريق سؤاله":أو مؤاخذون بما نتكلم به "بما أراد الرسول ﷺ تبينه له.

هذه النقاط الحجاجية تعكس في صورة الاستعارة السابقة سلما حجاجيا يمكن تمثيله كما يلي:

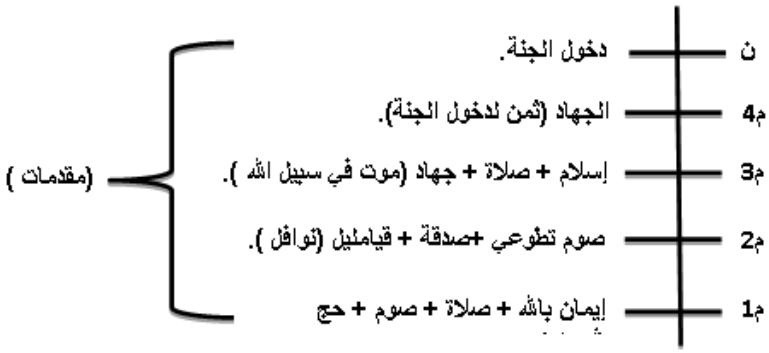

فيعكس السلم الحجاجي أنّ "النتيجة منطقية" لما سبقها من "مقدمات"، لا سيما وأن دخول الجنة كنتيجة يريدها معاذ بن جبل خاصة، والمسلمون عامة، والوصول إليها لا يتحقق إلا بـ:

- إيمان صحيح وعقيدة سليمة "الإتيان بالأركان".

- العمل الفعلي والترجمة للأركان من خلال الترغيب في الإتيان بالنوافل.

- أعلى درجات الإيمان أن يبرهن المسلم أنّه قادر على بيع نفسه لله تعالى، وأنّ الله اشتراها منه "الجهاد". من أجل الحصول على الجنة مصداقا لقوله تعالى: " إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِين أَنْفُسَهُم وأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُم الجَنَّة يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ...." التوبة الآية 111.

ليواصل الرسول "ﷺ" ميدان الإقناع حين يرى قابلية معاذ للاستزادة، عن طريق سؤال استفهام: "ألا أخبرك بملاك ذلك كلّه "، وهي "الحجة الدامغة" التي قدمها الرسول "ﷺ" لمعاذ سعيا منه لكي يحقق ما يقوم به، وذلك بحفظ جارحة اللسان، "كُفّ عليك هذا"، وهو فعل "أمر" كفعل إنجازي حرفي يحمل قوة إنجازية مستلزمة بغرض "التحذير" من عاقبة إطلاق العنان للسان، جعلت من معاذ يستفهم متعجبا :"أو مؤاخذون بما نتكلم به"، فأجاب عليه الصلاةوالسلام إجابة مقنعة مبينا: أنّ إطلاق العنان قد يكون سببا في دخول النار، بسبب ما يحصده هذا اللسان من آثام كالغيبة والنميمة وشهادة الزور وغيرها، وهي صورة استعارية أخرى استعار من خلالها الرسول "ﷺ" صفة الحصاد من آلته، ووظفها للسان تعبيرا عن عظيم ما يحصده هذا اللسان من آثام دون مراعاة لطيب الكلام من قبيحه أثناء إطلاق العنان له، وتكمن حجاجية هذه الاستعارة في أنّ:

*الكبّ على الوجه في النار سببه حصاد اللسان (نتيجة).

*إطلاق العنان للّسان الوقوع في المحرمات كالغيبة والنميمة (مقدمة).

*الغيبة والنميمة وشهادة الزور تُذهب حسنات صاحبها (مقدمة).

*ملاك الأمر كله: وجوب حفظ اللسان "كفّ عليك هذا" (مقدمة).

هذه إطلالة من الاستعارات الحجاجية في كتب الحديث النبوي تعكس أهمية الاستعارة في الكلام وفضلها في إبراز المعاني والكشف عنها وقيمتها وبلاغتها في اللسان، ولعل هذه القيمة والأهمية للاستعارة جعلت من "عبد القاهر الجرجاني" يُقرّ بحقيقتها:".... من الفضيلة الجامعة فيها أنّها تُبرز هذا البيان أبداً في صورة مستمدة تزيد قدره نُبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً .... ومن خصائصها التي تذكر بها- وهي عنوان مناقبها – أن تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تُخرج من

الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر ...فإنّك ترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس متينة، والمعاني حقيقية بادية جلية....." (الجرجاني، دت، ص36-37). لتبقى في الأخير حقيقة وجوب أن يقترن جمال الأسلوب بعامل الإقناع في الملتقى مع عدم الفصل بينهما، لأن المعنى كي يكون مقنعا قد يحتاج إلى أسلوب يجمّله ويحفظ له رونقه وبهاءه، كما أنّ جمال المعنى يزيد في قدرة التأثير في المتلقي والاستجابة له. ـ ولم يتأتَ ذلك إلاّ حين انفرد الخطاب النبوي في اقناعه كل المتلقين لاسيما حين استعمل الأدوات المعرفية والمنهجية بمختلف أنواعها متطلعا إلى التواصل مع الاخر بتوظيف آليات الإقناع ومنها الاستعارة والتي ساهمت بشكل فعّال في تيسير وقبول الإقناع لدي المخاطبين.

المصادر والمراجع:

1) ابراهيم مصطفى (دت)، أحمد حسن الزيات، وآخرون، المعجم الوسيط، دار المعارف القاهرة.
2) الإمام النووي، (دت)، شرح النووي على صحيح مسلم، دار احياء التراث العربي، بيروت.
3) البخاري ابو عبد محمد بن اسماعيل البخاري، (1992)،صحيح البخاري، ضبطه ورقمه، وخرج أحاديثه مصطفي ديب البغا، موفم للنشر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة الجزائر.
4) الجرجاني عبد القاهر، (دت)،أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، دار المدني.
5) الحبيب اعراب، (دت)،الحجاج والاستدلال الحجاجي، استقصاء نظري ضمن كتاب الحجاج، اعداد حافظ العلوي اسماعيل، عالم الكتب الحديث، الاردن.
6) الخباشة صابر، (2008)،التداولية والحجاج، دار صفحات للدراسة والنشر، سورية دمشق.
7) خفاجي محمد عبد المنعم، (دت)،نحو بلاغة جديدة، مكتبة غريب، القاهرة.
8) دريدي سامية، (دت)،الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية الى القرن الثاني للهجرة، عالم الكتب الحديث.
9) رضوان الرقبي، (دت)،البلاغة والحجاج، بحث في تداولية الخطاب تقديم ادريس مقبول، افريقيا الشرق، المغرب.
10) الزركشي برهان الدين، (1972)،البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة بيروت.
11) الزناد الأزهر، (1992)،دروس في البلاغة العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
12) الصابوني محمد علي، (1986)،من كنوز السنة، مكتبة رحاب الجزائر.
13) طه عبد الرحمن، (1998)،اللسان والميزان او التكوثرالعقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
14) عباس حشاني، (2013)،مصطلح الحجاج بواعثه وتقنياته، مجلة المخبر أبحاث في اللغة، جامعة بسكرة، العدد التاسع.
15) عبد العزيز بن صالح، (2007)،التصوير البياني في حديث القرآن، المجلس الوطني للإعلام - الإمارات دبي.
16) عبد الهادي بن ظافر الشهري، (2004)،استراتيجية الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد بيروت، ط الأولى.
17) العزاوي أبو بكر، (2006)،اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء.
18) العسقلاني ابن حجر، (1998)،فتح الباريعلى شرح صحيح البخاري، دار الحديث القاهرة.
19) عصفور جابر، (دت)،الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب - المركز الثقافي لبنان.
20) قطب سيد، (دت)،التصوير الفني في القرآن – دار الشروق، بيروت لبنان.
21) محمد العمري، (دت)،البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، نشر افريقيا الشرق، المغرب.
22) محمد طروس، (دت)،النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية، دار النشر للثقافة، مطبعة النجاح الدار البيضاء المغرب.
23) مرتاض عبد المالك، (2009)،مقدمة في نظرية البلاغة، متابعة لمفهوم البلاغة ووظيفتها، مجلة جذور.

24) ابن منظور، (دت)،لسان العرب، دار صادر للنشر والتوزيع، مادة حجج.

25) النووي أبو زكرياء يحي بن شرف، (دت)،رياض الصالحين، تحقيق عبد العزيز رياح، دار السلام الرياض

26) Cfencyclopedique universalise, 1995, P.937

27) *Dictionnaire encyclopédique de pragmatique . ED :P60*